الفصل الأول

كيف تكتسب صفات الباحث العلمي؟

مقدمة:

الواقع أن عملية البحث والتنقيب عن المعارف التي تكمن في طيات مغاليق المجهول هي من الأمور الفطرية التي نشأ الإنسان وترعرع على جذورها! ومن أكثر الأمثلة وضوحًا للعيان، هي أول عملية بحث للإنسان بعد ميلاده وتواجده في الحياة الدنيا وهي البحث عن ثدي أمه لكي يحصل منه على ما يسد جوعه ويطفئ ظمأه، ويمده بمضادات حيوية تكسبه مناعة كافية للوقاية من شرور الكائنات الدقيقة المسببة للأمراض.

غير أن البحث في مجالات العلم والمعرفة المتخصصة، يختلف كثيرًا عن تلك العملية الفطرية التلقائية، وإن كان يشمله كأداة مبدئية أو ضمنية يمكن أن تستخدم لعملية البحث المعرفي أو العلمي التي يجب أن تتوافر بشروط وركائز محددة، لا يستطيع المرء التعرف عليها وإتباعها إلا إذا مرّ أولاً بمراحل تدريبية وانتقائية

يكتسب من خلالها مواصفات الباحث العلمي الصحيح؛ تلك التي يمكن تتبعها والتعرف عليها – في عمومها – من النقاط التالية:

1/1/1 أهم خصائص وسمات الباحث العلمي الجيد

– لابد أن يتمتع الباحث العلمي بصفة «**الفضول المعرفي**» يجعله دائمًا في حالة تتبع لكل الظواهر والمستجدات والمصطلحات، تواقًا دائمًا إلى **فهمها**، وتحديد **هويتها**، وتفسير **حدوثها**، أو تحديد **علاقتها ومدى ارتباطها** بغيرها. ولابد أن يرتبط ذلك «الفضول» المعرفي بحالة «نهم» دائم يتمثل في حماس مشتعل لا يخبو إلا في حالات أو مراحل استعادة النشاط نتيجة للإرهاق البدني أو الذهني المرتبط بتلك العمليات المعرفية الدءوب.

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[1] ومن ذلك الحديث الشريف نلاحظ أن الباحث عن العلم يتشبع بحبه وبرغبته في الاستزادة من الغوص في بحوره حتى أنه يكتسب حالة (المنوَّم) به الذي يظل فكرة في العلم مرافقًا له في صحوته وفي منامه، ويلاحظ أن النهم إلى العلم (على الرغم من مشقته) تم تقديمه على النهم إلى ملذات الدنيا برغم إبهارها ويسر استجلاب منافعها والتمتع بها.

– لابد من التمتع بخاصتي «**التفكير والتحليل العقلي المستقل**» و «**النقل الصحيح لخبرة الآخر** والمعارف الأخرى بإدراك ووعي لا لبث فيه ولا تحريف ولا تحيز». وفي كلمتين موجزتين لابد أن تستخدم وسيلتي «**العقل والنقل**» معًا وليس بإحداهما فقط وإلا فقد الخواص الإيجابية التكميلية الكامنة في الوسيلة الأخرى، وأصبح نتاجه البحثي غير مكتمل ولا مقبول. فخاصية «النقل» تفيد في سد نواحي

(1) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج2، 662، ص 1125

التصور المعرفي لدى الشخص من خلال الاستعانة بما يتميز به الآخرون، فمن حكمة الله تعالى أن جعل «فوق كل ذي علم عليم» لكن الاكتفاء بذلك يخلو من جوانب الإبداع والخروج بجديد والتحول من صفة (المتلقي من علوم الآخرين) إلى صفة (المشارك) أو (المدعم) أو المضيف إلى (علوم الآخرين).. وتلك الصفة الأخيرة المتعددة المنافع لن تتأتى إلا إذا استخدم المرء عقله هو الذي أراد الله تعالى أن يميز به ذاته على غيره بجوانب لا يعرفها إلا الخالق عز وجل، فإذا ما أحسن المرء استغلال عقله أو قلبه اللذان يمثلان محل الفكر والتحليل والتدبر المنطقي للأمور وللأشياء وللمشاهدات، يمكن أن يساهم ببحوث تخصه في مجالات معرفية من جوانب عديدة ومتداخلة منها تصحيح منقول خطأ، أو تحديثه، أو استكمال جوانبه، أو توضيح لبعض غوامضه ... الخ.

- لابد للمتطلع إلى انتهاج طريق العلم والتوغل الباحث في دهاليزه، «**أن يختار ويصوب فقط على مجال أساسي متخصص**» تجنبًا للتشتت بين كثير من الميادين المعرفية التي تثير لديه الخلط في الفهم والإدراك.

- وعلى المرء أن يعمل بالنصيحة الحكيمة «**اختر الرفيق قبل الطريق**»، وذلك بأن يحسن اختيار المراجع المعرفية الجادة التي يمكن استخدامها كدليل مرشد أولى للولوج إلى أول محطة بحثية فكرية يمكن بعدها التوسع في الدائرة المعرفية الأكثر عمقًا وصلاحية في الاستخدام لأغراض الإرشاد والتوجيه المعرفي والبحثي. وبكلمات أخرى، لابد من **القراءة، ثم القراءة، ثم القراءة**.

- ويجب **تدوين ملخصات** لما يتم قراءته **وتصنيف** ما يتم تلخيصه تحت **عناوين** رئيسية ثم فرعية ويمكن استخدام كروت أو قصاصات ورقية يكتب على كل منها معلومة منفصلة بعنوان منفصل يشير إلى متضمناتها بحيث يتم تكوين حجم كاف من «**المدخرات المعرفية**» التي يمكن استخدامها وقت البدء في الرحلة البحثية والتخصصية، كل بما يصلح له في متن البحث المستهدف.

- يقال «**العقل السليم في الجسم السليم**» وهي مقولة صحيحة في عمومها بالفعل، وذلك يفيد في إرشاد الباحث بضرورة التمتع باللياقة البدنية والعقلية والذهنية الكافية لتحمل المشاق الكبرى المرتبطة دائمًا بعملية البحث المعرفي عبر كل مراحله، وكم من باحثين جادين حال مرضهم أو سوء حالاتهم الصحية دون التمكن من استكمال المرحلة البحثية المستهدفة، فالبحث العلمي ليس فقط مجرد جلوس على مقعد أمامه منضده ومجموعة من الكتب المشتراة أو المستعارة كما فعل كثير ممن فشلوا في استكمال طريقهم العلمي، وليس مجرد جلوس على مقعد وتصفح المواقع عبر الإنترنت. فكثير مما ينشر قابل للتشويه وللتلاعب بمتضمناته، كما أن منشورات الإنترنت لا ترقي أبدا لمصداقية ما يتم نشره في الكتب الورقية، وكذلك فإن البيانات اللازمة للاستخدام لأغراض التحليل العلمي من الأفضل أن يتم الحصول عليها من مصادرها الأصلية؛ إما من خلال البحوث الميدانية والمقابلات الشخصية، أو من المؤسسات محل البحث والتقييم ... الخ، وفي أجزاء متقدمة من الكتاب سيتضح كم هو شاق طريق البحث المعرفي، وكم يتطلب من لياقة بدنية وعقلية وذهنية غير تلك التي تتوافر للعموم، بل إن ذلك يتطلب أيضًا توفير الوقت والمال الكافيين لتغطية المستلزمات الأساسية والضرورية للقيام برحلة بحثية مُرضية وكافية.

ومن المتوقع أن يجد بعض القراء فيما قيل توًا بعض القسوة التي تتضمن التنويه إلى (حرمان) الضعفاء والمرضى ومحدودي الدخل من إشباع طموحاتهم البحثية العلمية، غير أن ما قيل هو أمر واقعي أكدته الشواهد العلمية من خلال تتبع حالات كثيرة حول الباحثين الذين توقفوا، أو ما زالوا يتعثرون منذ فترات زمنية طويلة دون أن يتمكنوا من إنجاز أنشطتهم العلمية المطلوبة أو المأمولة أو المستهدفة نتيجة للقصور في قدراتهم المالية أو نتيجة لضعف حالاتهم الصحية أو لإصابتهم بمشاكل صحية كبرى.

ولكن بصيص الأمل يطل توًا ليذكر مثل تلك الحالات بأن هناك حل مأمول يكمن في النظر إلى مثل تلك المشاكل على أنها تحديات يجب مواجهتها بمعالجات

إيجابية مثل المتابعة الصحية الجادة، وتحسين الحالة الغذائية بالوسائل المناسبة، وتحسين الحالة المادية من خلال عمل إضافي لتحسين الدخل، أو استعارة الكتب والمراجع من المكتبات العامة والأصدقاء والمعارف، والاستعانة بالسايبر نت (مقاهي النت) من أجل استخدام أجهزة الكمبيوتر، مع ممارسة رياضة المشي والتأمل meditation وغيرها من التمارين المنشطة للذهن والبدن.

- إن السير الصحيح على طريق العلم الصحيح يتطلب «**صبرًا كبيرًا وتؤدة حكيمة**» في إعطاء كل مراحل البحث المعرفي حقها من الجهد الشامل والوقت المستغرق، وعندما نذكر كلمة تؤده «حكيمة» نعنى بذلك التدريب على عدم الإفراط في المبذول من الجهد والوقت تجنبًا لإهدار الطاقات والموارد، ولا التقتير فيهما بما يتسبب في عدم اكتمال تحقيق الهدف المعرفي على النحو النموذجي المستهدف وذلك يمكن أن يكتسب من خلال دورات التنمية البشرية وخصوصًا في مجال المهارات الإبداعية المتميزة study skills.

ونعود إلى التأكيد على حتمية صبر الباحث في عمليات استيفائه لكل الخطوات البحثية وعدم العجلة التي قد تتسبب في عودته إلى نقطة الصفر مرة أخرى، فكم من باحثين دفعتهم طموحاتهم المفرطة إلى الاستعجال في تحديد عنوان غير مناسب لبحث ما، بمرور تتابع الجهود توقفوا لأن ذلك العنوان يتطلب بيانات أو معلومات غير متوافرة أو لأنه يتطلب وقتًا كبيرًا يفوق الإمكانيات الفعلية المتاحة للباحث من جهد ووقت ومال ... الخ.

وكلنا نتذكر قصة النبي موسي عليه السلام الذي اعتقد بأنه أكثر الناس علمًا، فأرسل له الله تعالى له الخضر عليه السلام الأكثر علمًا، فلم يستطع موسى استكمال الرحلة المعرفية معه بعد حدوث ثلاث تجارب معرفية (خرق السفينة في البحر، وبناء جدار في مدينة ظالم أهلها، وقتل غلام بدون جريمة منظورة اقترفها ذلك الغلام)، حيث لم يستطع موسى أن يصبر حتى الوقت الملائم للتعرف على التفسير المنطقي لكل ما حدث من أحداث بدت له غير منطقية !

وفعلاً، فكما قال جدودنا الحكماء «الصبر مفتاح الفرج»، فإذا ما بدت الأمور كلها في البداية مبهمة ومجهولة، يجب على الباحث التأكد من أنه سار على النهج البحثي السليم واستخدام الأدوات البحثية الملائمة، واستغرق الوقت الكافي، وبذل الجهد الداعم الفعلي، فلابد أن يتأكد من أن كل ذلك مع التحلي بالصبر على عملية نضج العملية المعرفية سوف ينجم عنه حتمًا إنفراجة معرفية قد تفوق بنتائجها المثمرة أهدافه وطموحاته المسبقة.

في كثير من الأحيان يلاحظ أن هناك باحثين يبدون حماسًا شديدًا لنيل درجات علمية أعلى متميزة خاصة درجات الماجستير والدكتوراه. ولكن يدل الواقع المرُّ لحالهم على أنهم لا يملكون «**مكتبة خاصة**» بهم تشمل على باقات متنوعة من الكتب والمجلات والمنشورات العلمية التخصصية ولا على القواميس اللغوية العربية والإنجليزية والفرنسية .. ولا على القواميس التخصصية المرتبطة بتخصصاتهم مثل القاموس الاقتصادي والقاموس الطبي والقاموس العلمي، ولا على موسوعات علمية حتى المبسط منها من ذلك النوع الذي يساعد على إرساء قاعدة ثقافية معرفية لابد من تواجدها أولاً لكي يبني عليها الباحث بعد ذلك ما شاء من أبحاث أكثر تخصصًا وعمقًا وتحديدًا.. بل ويجهل الكثيرون غالبية دور النشر وتسويق الكتب العلمية المتخصصة، ونادرًا ما يترددون على **معارض الكتب** أو ينتظمون في حضور **المؤتمرات والندوات والحلقات العلمية المتخصصة** ويكتفون بالإنترنت واستعارة بعض الكتب التي تكون متاحة لفترات مؤقتة وعادة بلغة بلدهم لضعف تحصيلهم ومهاراتهم اللغوية الخاصة بالدول الأخرى.

وبالتالي، فالباحث الواعد هو من يبدأ منذ نعومة أظفاره في تكوين **مكتبة ثقافية** متنوعة تتدرج إلى مكتبة معرفية موسوعية ثم يتم دعمها بعد ذلك بمصادر معرفية من كتب وموسوعات ومطبوعات متخصصة - ليس فقط كمجرد ركنة ديكور معروضة بالمنزل أو بالمكتب، لكن لابد من قراءة كل ما يتم اقتنائه وتدوين ملحوظات وتعقيبات مصنفة عن كل مرجعية لتكون - كما ذكرنا من قبل - بمثابة

بنك معارف ومعلومات خاصة بالباحث وبذويه بحيث تستخدم لتغذية العقل وتنمية المدارك الفكرية والتحليلية والمعرفية للباحث.

- وعلى ذات الدرب يجب على الباحث أن **يتعلم أكثر من لغة** وأن يقوم بصقلها بقراءة كثير من الكتب والمطبوعات باللغات التي تعلمها حيث يفيد تعلم كل لغة جديدة في تعلم ثقافة وعلوم جديدة وإضافية وتراكمية تخص البلاد الناطقة بتلك اللغة، كما أن ذلك يساعد على التواصل الفكري والمعرفي والثقافي المستمر بين الباحث وبين تلك الدول، مما يتيح له فرص السفر والعمل في تلك البلاد، أو التواصل مع الوافدين من تلك البلدان إلى بلاده، وبالتالي يصبح الباحث سفيرًا علميًا لبلده، ويصبح أيضًا عالمي الفكر وأكثر استقلالية في مداركه وفي تحليلاته من أولئك التابعين دائمًا لثقافة بعينها.

- إن الظن في عمومه مرفوضًا لأنه يتسبب في ظلم كثير ممن تثبت براءتهم من مواضع التشكك، كما يتضح من الأمر الإلهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12] ، كما نهى أيضًا عن التجسس لأنه تدخل في شؤون الآخرين وتعدي على حقوقهم في التمتع بهوية شخصية لا تعلن تفاصيلها على الملأ إلا برضا أصحابها ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ.... ﴾ [الحجرات: 12]. لكن في البحث العلمي يختلف الأمر حيث يعتبر «**الظن من حسن الفطن**» فلابد للباحث الكفؤ من استخدام أية بيانات أو معلومات أو نظريات قام البشر بوضعها بمثابة «فرضيات» مثلها تمامًا مثل ما قد يستنتجه بصفة أولية نتيجة لإعمال وسيلة الملاحظة والتتبع التحليلي لشواهد أو ظواهر معينة، ويجب على الباحث عدم اعتبارها بمثابة بديهيات أو مسلمات ما لم يضعها في مطبخ التحليل العلمي المنطقي العملي للبيانات المناسبة، وحتى إذا وصل إلى نتائج فلا يتحدث عن صوابها (الكامل) لأن البحث دائمًا ما يقوم على فرضية «التركيز على بعض المتغيرات واستبعاد غيرها» من أجل التمكن من تحليل بشري محدود حتمًا بإمكانياته وبقدراته.

وبالإضافة إلى شرط أخذ الباحث للأمور وهو في حالة (تشكك ومظنة) من صحتها أو من خطأ حدوثها (من أجل التحفيز على إجراء تحليل علمي منطقي تقييمي صحيح)، فعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده في تحصيل أكبر قدر من البيانات والمعلومات، وكلما كانت أكثر في أعدادها وفي صنوفها وأقوى في ارتباطها بمجال البحث، كلما ساعد ذلك على ارتفاع درجة مصداقية النتائج .. وطبيعي أن تحصيل البيانات والمعلومات يتطلب مهارة كيفية اقتناصها والحصول عليها من كل مصادرها الحقيقية، في تلك الحالة قد نعتبر الباحث - تجاوزًا - كأنه **جاسوس معرفي** لكنه يقوم في تلك الحالة بمهمة مقبولة دينيًا وقانونيا وأخلاقيًا خاصة عندما يحصل على التصريحات الرسمية اللازمة وعندما ينشر في بحثه تفاصيل كاملة عن المصادر الحقيقية - لما حصل عليه من بيانات ومعلومات وعن المنهج العلمي الذي اتبعه على النحو الذي سيتضح في جزء لاحق بمزيد من التفصيل اللازم.

وفي ذلك يقول المثل الشعبي الحكيم «**ظن العاقل خيرٌ من يقين الجاهل**»[1] ، ونتثبت أولاً وأخيرًا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات: 6].

فعلى الباحث ألا يأخذ الأمور ودراسات وتصريحات الآخرين كما هي ثم يعلن أنه باحث جيد، فهو في تلك الحالة لم يفعل سوى (نقل) أفكار الآخرين فقط، تمامًا ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [الجمعة: 5].

- إعداد «**بنك شخصي للتجارب المعرفية والمعيشية**» للباحث على مدار حياته، من أجل تكوين مدخرات كافية من خلاصات ما مر به من تجارب ومواقف، وعدم الاستهانة بأية تجربة له أو لغيره، وعدم تجاهل أية تجربة تنطوي على أمور قد لا يحبها المرء، فكل شيء في حياة الإنسان والأمم هو في الواقع «**بقدر**»، والإنسان

---

(1) مجدي عبدالعزيز، 2012، ص 91.

والأمة ما هما إلاّ مكوّنًا متحركًا من مثل تلك التجارب والأحداث التي تساهم بشكل أو بآخر في تنمية العقل والمدارك، وكما هو صادق ذلك المثل الشعبي القائل بأن «**طول التجارب زيادة في العقل**»[1].

وبكلمات محددة يمكننا القول بأن **التجارب هي اللبنات الأساسية لهيكل الخبرات الذي يمثل بدوره الطابق الأول من برج العلم الشاهق**...

فليتأكد كلّ باحث معرفي وعلمي من ضرورة استغلاله الكامل لتجاربه ولتجارب الآخرين، وليستخدم وسيلة «التجربة والخطأ» كأحد رفقاء رحلة التحليل العلمي المتنامي كما سيتضح فيما بعد، وليتذكر مثلاً شعبيًا آخر أعجبني كثيرًا في هذا الصدد يقول «في التجارب علم مستأنف»[2].

- وأخيرًا، وليس بآخر، فعلى الباحث أن يلتزم **بأخلاقيات وبمثاليات البحث العلمي النموذجي**، فيلتزم بالعلم النافع له وللآخرين، وكلما اتسعت دوائر الانتفاع بإنجازه العلمي كلما أصبح أكثر اقترابًا من دائرة البحوث المقبولة عند الله وعند كل الطوائف. ومن بين مؤشرات نفعه، **عدم اكتنازه وحجبه عن الطالبين له والمحتاجين إليه** ونتعلم ذلك من الحديث النبوي الصحيح «علم لا ينفع ككنز لا ينفق منه»[3] وفي رواية أخرى «علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه»[4].

ويجب على الباحث أن يحب العلم لأجل العلم ذاته وألا يكون ذلك لأغراض دنيوية غير نافعة مثل المباهاة أو الاستعراض التنافسي أو لفت النظر ومجرد الشهرة والتعريف بالذات، وفي ذلك يسترشد بالحديث النبوي الصحيح «من تعلم العلم

---

(1) المرجع السابق، ص 90.

(2) المرجع السابق، ص 96.

(3) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج 2، 4024، ص 744.

(4) المرجع السابق، 4023، ص 744.

ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم»[1].

وهناك حديث نبوي صحيح يعتبر بمثابة توجيه تربوي تنموي شامل لما يجب أن يتصف به الباحث في أفضل حالاته حيث يقول النبي ﷺ «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2] –

وبطبيعة الحال فإن الباحث العلمي لابد أن تتوافر فيه خصائص وسمات كثيرة وإضافية لما سبق سرده وكلها تتعلق بما يجب أن يتوافر في الشخصية المثالية مثل ضرورة الثقة بالنفس **والتمتع بطلاقة اللسان وبالنطق والتعبير العلمي الدقيق وبالرزانة مع التواضع وبالزهد** في الماديات والتركيز الأساسي على **الطموح العلمي الارتقائي** المستمر، كما يجب عليه أن يراعى ارتداء **الملابس الوقورة** التي تتناسب مع وقار العلم الذي يحمل رايته، ولابد أن يكون متابعًا **لكل المستجدات العلمية** حتى إن كانت خارج مجال تخصصه لأنها تساهم في التنمية المستدامة لمداركه وملكاته الفكرية والتحليلية، وعليه أن يركز بصفة خاصة على مجالسة **العلماء والمتميزين** وأن يمارس بصفة دائمة العملية المزدوجة، من **التعليم والتعلم** معًا بحيث يكون معطاء بعمله للآخرين، ومستودعًا واسعًا مرنًا لمعارفهم.

والواقع أن السمات كثيرة – بصعب حصرها، لكن ما سبق سرده منها، يمكن

---

(1) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج2، 6158، 2048، ص 1060.

(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج2، 6297، 2117، ص 1079.

أن تقدم لأي طموح في ارتداء ثوب الباحث الجيد النموذج الأساسي الذي يضمن غرس بذور متكاملة في إدراكه ووعيه بحيث تساعده على وضع أقدامه على البداية الصحيحة لطريق البحث العملي والمعرفي والفكري النموذج الأساسي الذي يضمن غرس بذور متكاملة في إدراكه ووعيه بحثي تساعده على وضع أقدامه على البداية الصحيحة لطريق البحث العلمي والمعرفي والفكري النموذجي، ووقتها، سيكتشف كل باحث بشكل تلقائي ورشيد الجديد والجديد مما يمكنه من أن يقوم هو بدور تالٍ تكميلي لما بدأناه نحن في كتابنا هذا.

غير أن الحديث حول ذلك الموضوع لا يمكن أن ينتهي عند هذا الحد، إذا ما تذكرنا أن هناك نخبة من الباحثين تمتد آفاق طموحاتهم إلى أن يسلكوا طرقًا علمية ذات صفة مثالية خاصة وهي التي تقوم على الدراسات الدينية، أو على ذلك النوع من الدراسات مع دمجها بالدراسات ذات الأبعاد الدنيوية البحتة وتخص بالذكر والتحديد **الباحثين في المجالات العلمية الإسلامية** مثل الباحثين في مجال الاقتصاد الإسلامي والطب الإسلامي والفن الإسلامي ... الخ.

فبالإضافة إلى ضرورة توافر الخصائص التي يشترط توافرها فيهم وإلا أصبحوا غير لائقين لتحمل تلك الراية الفكرية العلمية شديدة الحساسية ودقيقة بالتخصص ذلك ما سوف نقف عليه معًا من خلال العرض التالي.

2/1/1 أهم خصائص وسمات الباحث العلمي الإسلامي

لابد أن يكون دارسًا بجدية وبعمق **الدراسات الإسلامية** الأساسية من قرآن وتفسيره وأسباب نزوله ..، وسنة نبوية مع التمييز بين الصحيح والضعيف والحسن والأخذ دائمًا بالصحيح، وإن اقتضت الضرورة بالحسن، والتركيز على التشكيك في الضعيف وأفضلية تركه، وكذلك على الباحث الإسلامي أن يكون ملمًا بسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وأن يستوفى التوجيه النبوي القائل «.. فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهدين الراشدين

تـمكسوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[1].

وعلى التوازي، لابد أن يكون الباحث ملمًا بمنتهى الحرفية والدقة بكل ما يرتبط بالعلم أو المجال المعرفي الذي قرر **التخصص** فيه، وأن يكون متمكنًا تمامًا من استخدام مفاتيحه وإدارة متضمناته **المعرفية الفنية المتخصصة** بشكل صحيح عملاً بقول الرسول ﷺ «إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به مني، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإليّ» [2].

وعلى الباحث العلمي الإسلامي أن يكون ملمًا أيضًا بأساليب **الاجتهاد والقياس التشريعي** من أجل المواءمة الصحيحة بين المتضمنات التقليدية الموضوعة من خلال أفكار بشرية من ناحية، وبين الأحكام التشريعية التي أمر بها الخالق عزّ وجل، مثل تحريم المخدرات قياسًا على حكم تحريم الخمور التي تتشارك معها في الخصائص والآثار الأساسية.

ومن أهم الأمور التي يجب على الباحث الإسلامي أن يحرص على التحلي بها، هي الإلمام الشامل والكافي **باللغة العربية** كمصطلحات وكقواعد نحوية وكتعبيرات بلاغية .. الخ ويساعده في ذلك القواميس المتخصصة وكتب النحو المبسطة، والإكثار من القراءات المكتوبة بلغة عربية سليمة، مع إعداد قاموس عربي تخصصي أو علمي شخصي، يصنفه الباحث وفقًا لحروف اللغة العربية الثمانية والعشرين في كشكول ضخم الحجم، تاركًا لكل حرف ثلاث ورقات على الأقل، بحيث ينقل إلى ذلك القاموس الشخصي كل ما يتعلمه أو يراه هامًا من خلال قراءته المتخصصة – كما يمكن إعداد كتيب آخر يضم المترادفات والمتقابلات والكلمات ذات النبرات

---

(1) أبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجة والحاكم، عن العرباض بن سارية.

(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج 1، 767-365، ص 194.

المنسجمة... الخ، بحيث يمكن للباحث استخدام ذلك كموسوعة لغوية عربية مبسطة بالإضافة طبعًا إلى اقتناء المنشور الجيد في ذلك الصدد.

ولقد وردت آيات كثيرة تؤكد على أهمية اللغة العربية الأولى بين اللغات الأخرى كلغة تمثل هوية المرشد: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ .... ﴾ [الزمر: 28]، وكلغة للحكم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ ﴾ [الرعد: 37] ، وكلغة للحوار وللدعوة والتعليم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: 103] .

ولأن كثير من الرافضين لفكرة دمج الدين والعلم معًا يبررون ذلك بأن الدين فرض فقط لدواعي التعبير الخالص لله ولإقامة طقوس معينة تعبدية لا صلة لها بالأمور الدنيوية الحياتية والمعيشية، فإن الباحث العلمي الديني الماهر هو الذي يستطيع إبراز حقيقة أن الدين شامل لكل شيء كمرشد وكدليل شامل للعموميات ولكثير جدًا من دقيق التفصيلات لكل ما يرتبط بأمور الدنيا والآخرة، ولكل العلاقات المتنوعة المختلفة ليس فقط بين البشر، ولكن أيضًا بينهم وبين المخلوقات الأخرى.

وبقدر ما كان **إبراز المنظور الديني** وتوجيهه يتم خاصة **في مواضع تحقيق المنافع والمكاسب والمصالح المعيشية التي يطمح إليها العامة** على وجه التحديد والتركيز، بقدر ما يحقق الباحث العلمي الديني من نجاح ومقدرة على الاستحواذ على قبول أكبر قدر من الأوساط العلمية المختلفة حتى من لا يمت منها للدين بصلة، لكن لابد أن يحدث ذلك بشرط أن يكون متوافقًا بحق مع الأحكام والمبادئ التشريعية، وبحيث لا يتم الانزلاق في مصيدة تطويع الدين لمصالح ولأغراض الدنيا كما حدث في الدول الغربية التي انتهت بحالات متزايدة من إنكار الدين ذاته والاكتفاء فقط بالاهتمام بالفكر والتوجيه البشري المحض.

وفي ذلك الصدد، يجب على الباحث العلمي الديني أن يضع دائمًا نصب عينيه، الآيتين الكريمتين اللتين تذكرانه دائمًا بحتمية **الأخذ بالمنظور المزدوج لأمور الدنيا والآخرة دائمًا معا** في كل أبحاثه ومؤلفاته، حيث يقول الله عزّ وجل:

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: 200-201].

وعلى نفس النهج السابق ذكره توه، فعلى الباحث العلمي الديني أن **يحسن اختيار واستخدام الأدلة والنصوص الدينية أو الشرعية الصحيحة** والمناسبة لكل موضع للاستدلال بها، وأن يكون بالغ الدقة في تحديد ذلك وفي إقناع العلماء خاصة غير المقتنعين بالعلم القائم على التوجيه الديني بصحة ما يقول منطقيًا وعمليًا، وأن لا يبالغ في ربط كل الأمور العلمية بدقائقها بنصوص تشريعية لم تنزل من أجلها وذلك خاصة في المجالات الفنية التخصصية البحتة عملاً بقول الرسول الكريم«إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به مني، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإليّ»[1].

واستطرادًا لذات النقطتين السابقتين - للأهمية الخاصة بموضعهما - فعلى الباحث العلمي **استخدام لغة علمية ميسرة وملائمة للغة العصر الدارجة** - وأن لا ينقل التراث الفكري الديني القديم كما هو بدون شرحه بلغة العصر - فمثلاً الكاتب أحمد الدلجي كان قد كتب مؤلفًا هامًا بعنوان «الفلاكة والمتفيلكون». وقد أجرينا تجربة طريفة بطرح ذلك العنوان على كل من صادفنا وتعاملنا معه من مثقفي البلد وعلمائها وسألناهم عن معنى ذلك العنوان فأخطأ الجميع بدون استثناء (كما يتوقع أن يخطئ القارئ حتى قراءة تلك الكلمات في تحديد المعنى الصحيح للعنوان) وكانت معظم الإجابات ترى أن العنوان يرتبط بعلم الفلك أو بالفلكيات. ولكن ... هل تعرفون قرائنا الأعزاء ماذا يعني ذلك العنوان ؟!!! إنه يعني «الفقر والفقراء»!! [2] حيث صدر ذلك الكتاب في القرن الخامس الميلادي

---

(1) صحيح الجامع الصغير وزيادته، مج 1، 767-365، ص 194.

(2) لمزيد من التفاصيل، ارجع إلى زين صالح الأشوح، 1977، ص ص 37، 38، حيث يتضح ==

بين عامي 1412 ـ 1421م لبحث أسباب غلبة الفقر على الجنس البشري.

وفي حالة الكتب العلمية الدعوية (مثل الكتب في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، يجب على الباحث أن يتدرب على **توجيه الدراسة وعرضها بلغة تتلاءم مع لغة القوم الموجهة إليهم الدراسة المعروضة، أو أن تكون بلغتهم ذاتها** وذلك ضمانًا لعدم أصابتهم بملل أو بصعوبة أو بإساءة فهم ما يقدم إليهم باللغة المحلية الدارجة المعروفة أكثر بين أهلها.

ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلابد للباحث العلمي الديني أن يكون هو نفسه فاهمًا لما يبحث ويتعلم، ومحبًا له، وتواقًا لأن يعرف حوله المزيد، ولأن يعرِّف غيره به أيضًا لتأكده من نفع متضمناته. وكذلك فيفضل أن يبدأ العالم **بتطبيق كل ما يتعلم** على نفسه، وذويه، وكل المرتبطين به قبل إقناع الآخرين بأهمية ما يقدم من مقترحات وتوصيات ونتائج وذلك أمر بالغ الأهمية من أجل اكتساب صفة **المصداقية** في أعماله البحثية وفي شخصه من باب أولى، وإلا انصرف عنه وعن أعماله الآخرون وأصبح من الصعب القبول له، ولها (أي لأعماله البحثية). وفي ذلك يحذر الله سبحانه من التناقض بين قول الشيء مع فعل غيره بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: 3].

وإلحاقًا بنفس نقطة التطبيق، فمن المفضل أيضًا أن يكون ما يعرض من **نظريات قابلة للتطبيق العلمي** وإلا فقدت مصداقيتها وقبولها العلمي، فعلى سبيل المثال إن قيل أن هناك دورًا هامًا لأدوات التمويل الإسلامية، لابد من إثبات ذلك على المستوى النظري، ثم تنفيذ ذلك في الواقع العملي من خلال تفصيل تلك الأدوات، وإن قيل أن الطب النبوي هو مجال طبي متميز وفاعل، لابد من إدخاله في

==

أن ذلك الكتاب قد تم تأليفه في القرن الخامس الميلادي بين عامي 1412-1421م لبحث أسباب غلبة الفقر على الجنس البشري.

الواقع العملي بعد المرور على المراحل المعملية والتجريبية الكافية لمتضمناته مثل الحال في العلاج بالحجامة وبالتلبينة وبعسل النحل ... الخ.

ولابد على الباحث العلمي الديني من التحري الدقيق عما يستخدمه من أدلة شرعية، وألا يستخدم منها إلا ما تعلمه وفهمه من المصادر الأصلية الدينية وليست من خلال الفكر البشري وذلك بشكل دقيق ولابد أن يحذر تمامًا بما لا يعلمه لأن في ذلك **تقول على الله** وهو ما يؤخذ أيضًا على الباحث فيدفع الآخرين إلى التشكك في كل ما يقول بعد ذلك حتى إن كان صحيحًا. وفي ذلك يرشدنا الله تعالى بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: 33] . وتزيد فداحة ذلك الخطأ الجسيم في التقول على الله بغير علم، أو عن عند لأغراض دنيوية بحتة، إذا ما حدث ذلك في مجال الإجازة والتحريم التي لا يملك فتواها إلا أهل الذكر المتخصصين فقط ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: 116].

وعلى الرغم من عدم اعتبار الباحث في مجال العلم الديني رجل دين بالضرورة، إلا أن عليه أن يكون ملتزمًا بالتعاليم الدينية والسلوكيات والأقوال وردود الأفعال المتوافقة معها، وإلا فقد مصداقيته البحثية ذات الصبغة الدينية لدى الآخرين من ناحية، وافتقد نعمة اكتساب **الشخصية البحثية القدوة** من ناحية ثانية، وتعرض لعقاب الله في الدنيا وفي الآخرة نتيجة لعدم إتباعه لما حظي به من علم إلهي المصدر والأساس.

عند هذا الحد يفضل الاكتفاء بالحديث حول الباحث، ويتم الانتقال إلى الفصل التالي للحديث عن البحث وعن صحيح مواصفاته.